(٥٤) أبو بكر الكتاني[١]

ذكر الشيخ أبي بكر الكتّاني نوّر الله قبره:

كان رحمه الله شيخًا في مكّة شرّفها الله، ومُرشدًا في زمانه، وفي التَّقوى والورع والزُّهد والمعرفة وحيدًا في عصره، وهو من كبار المشايخ في الحجاز.

وله تصانيفُ في علم الصوفية، وكان ذا تمكينٍ، وفي الولاية صاحبَ مقاماتٍ عالية وفراسة وعاملاً ومجاهدًا، مُرتاضًا كاملاً في أنواع العلوم، ولا سيّما في علم الحقائق والمعارف.

وصحب الجُنيد، وأبا سعيد الخرّاز، وأدرك النُّوري.

وكان يُقال له: سراجُ الحرم.

وجاور مكّةَ عظّمها الله تعالى إلى أن ماتَ في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة.

وكان رحمه الله يُصلّي من أول الليل إلى آخره.

وقد ختم القرآن في الطواف اثنتي عشرة ألف ختمة.

وجلس في الحرم الشريف ثلاثين سنة تحت الميزاب، وكان يتوضَّأُ في هذه المدة كلَّ يومٍ مرّةً، وما نام في مدة ثلاثين سنة.

---

(١) هو محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٣٧٣، حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧، تاريخ بغداد ٤/ ١٢٧، الرسالة القشيرية ١٠١، الأنساب ١٠/ ٣٥٤، مناقب الأبرار ٧١٣، صفة الصفوة ٢/ ٤٥٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٥٤/ ٢٥١، مختصر تاريخ دمشق ٢٣/ ٧١، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٣٣، العبر ٢/ ١٩٤، الوافي بالوفيات ٤/ ١١١، مرآة الجنان ٢/ ٢٨٦، طبقات الأولياء ١٤٤، العقد الثمين ٢/ ١٤٩، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩٦، نفحات الأنس ٢٦٣، الكواكب الدرية ٢/ ١٤٥، ٤/ ٩٧، جامع كرامات الأولياء ١/ ١٠٤.

وقال: استأذنتُ من أمي، وتوجَّهتُ إلى مكّة، فلمّا دخلتُ البادية حصلَ لي موجبُ الغسل، قلت في نفسي: لعلّني ما خرجتُ بالشرائط، فرجعتُ، ولمّا وصلتُ إلى باب البيتِ، ألفيت أمي جالسةً خلف الباب، قلت: يا أماه، ما سافرتُ بإذنك؟! قالت: نعم، ولكنّي ما أشتهي أرى البيت إلاّ بوجودك، مذ رحلتَ أنا ما فارقتُ هذا المكان، وكان نيّتي أن لا أقومَ منه إلى أن ترجع إليّ. فصبرتُ إلي وفاةِ أمي، ثم دخلتُ البادية، فرأيتُ فيها فقيرًا ميتًا يضحك، قلتُ: أنت ميتٌ وتضحك؟! قال: هكذا يكون المُحبُّ.

قال أبو الحسن المُزيّن رحمه الله: دخلت الباديةَ بلا زادٍ وراحلةٍ، ووصلتُ بعد زمانٍ إلى جُومَة ماء، فجلستُ هناك، وقلت في نفسي: قطعتُ الباديةَ بلا ماءٍ وراحلة! فصاحَ عليَّ إنسانٌ، وقال: يا حجَّام، لا تُحدّثْ نفسك بالأباطيل. نظرت إليه، فإذا هو أبو بكر الكتّاني رحمه الله، فتبتُ عن هذا الفكر، ورجعتُ إلى الله تعالى.

روي عن الكتاني أنه قال: كان في قلبي شيءٌ من الغبار من جهةِ أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه بسبب أنَّه كيفَ وقعَ بينه وبين معاوية جدالٌ ونزاع، حتى أُريقَتْ دماءٌ كثيرة من الجانبين، فالأَوْلى بشأن عليٍّ رضي الله عنه أن يُفوّضَ الأمرَ إلى معاوية، وإن كان هو على الحقِّ ومعاوية على الباطل، وذلك أن النبيَّ ﷺ قد قال في حقِّه: «لا فتى إلاّ علي ولا سيف إلا ذو الفقار[1]» وكان

(١) روى ابن عدي في كتابه الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٩٩ (ترجمة عيسى بن مهران) أن راية رسول الله ﷺ يوم أحد كانت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وراية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة، فكان عليٌّ كرم الله وجهه يحمل على كل من رفع رايةً للمشركين فيقتله حتى قتل سبعة أنفس، وقتل جماعة من أئمة الكفر، فنادى صائحًا من السماء:

لا سيـــــف إلا ذو الفقـــــار ولا فتـــــى إلا علـــــي

وذو الفقار سيف رسول الله ﷺ أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة، قيل: فيه سبع فِقَر. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٢٤ عن عيسى بن مهران: قال ابن عدي: حدّث بأحاديث موضوعة، محترق الرفض. وقال أبو حاتم: كذاب، وقال الدارقطني: رجل=

مقتضى الفتوّةِ البذلَ والإيثار. قال: كنتُ نائمًا بين المروة والصفا في بيتٍ لي هناك، رأيتُ النبيَّ ﷺ ليلاً في المنام، ومعه جماعةٌ، من الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين، فاعتنقني رسولُ الله ﷺ، ثم أشار إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: من هذا؟ قلت: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم إلى عمر[1]، ثم إلى عثمان رضوان الله عليهم أجمعين، ثم أشار إلى عليٍّ رضي الله عنه، وقال: من هذا؟ فأطرقتُ رأسي حياءً منه، ثم آخى النبيُّ ﷺ بيني وبين عليٍّ رضي الله عنه، فتعانقنا، وأمسك عليٌّ رضي الله عنه بيدي، وأمسكتُ بيده، ثم غاب النبيُّ ﷺ، والأصحاب، وبقيتُ أنا وعليٌّ رضي الله عنه، فقال رضي الله عنه: نطلعُ جبلَ أبي قبيس[2]. فتماشينا، وطلعنا الجبلَ، ونظرنا منه إلى البيت المعظّم شرّفه الله تعالى، ثم انتبهتُ، فإذا أنا على أبي قُبيس، وما بقي من الغبارِ أثرٌ في قلبي.

قال الكتّاني رحمه الله: كان لي صاحبٌ، ولي منه ثقلٌ، فأعطيتُهُ شيئًا، فما زالَ ذلك الثقلُ، فذهبت به إلى البيت، ووضعت خدّي على الأرض، وأمرتُهُ أن يدوسَ وجهي، فلم يقبلْ حتى بالغتُ وألْحَحْتُ، فوضعَ رجلَهُ على وجهي، ووقف زمانًا حتى زالَ الثقلُ من قلبي، وحصل بدله المحبّةُ، ثم رزقني اللهُ تعالى مئتي درهم، فذهبت إليه، ووضعت الدراهم على طرف سجادته، والتمستُ

= سوء. قال الخطيب البغدادي: كان من شياطين الرافضة ومردتهم، وقع إليّ كتاب من تصنيفه في الطعن على الصحابة وتكفيرهم، فلقد قفّ شعري، وعظم تعجبي مما فيه من الموضوعات والبلايا.

قال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٥٠٦: قال في المقاصد: هو أثر واهٍ عن الحسن بن عرفة في جزئه الشهير عن محمد بن علي الباقر.

وفي السيرة النبوية ٣/ ١٠٠: عن بعض أهل العلم، أن ابن أبي نجيح قال: نادى منادٍ يوم أُحد:

لا سيـــــف إلا ذو الفقـــــار ولا فتـــــى إلا علـــــي

(١) في (أ): ثم أشار إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم إلى عمر الفاروق، ثم إلى عثمان.

(٢) جبل أبي قبيس: انظر صفحة ١٢٧.

منه أن يقبل، فنظر إليَّ شزرًا، وقال: إنّي اشتريت هذا الحال بسبعين ألف دينار، تريدُ أن تغرَّني بالدُّريهمات، ثم قامَ ونفضَ السجادة من الدراهم وذهب، فما رأيتُ مثلَ عزِّه وذلّي تلك الساعة حيث طرحَ الدراهم، وإني ألتقطُها من الأرض.

نقل أن تلميذًا له في حال النزع نظر إلى الكعبة، فرفسه بعيرٌ، وفقأ[١] إحدى عينيه، فنُودي في سرِّ الكتاني رحمه الله: أنه يردُ عليه في هذا الحال واردات غيبته ومكاشفات حقيقته[٢]، ولمّا نظرَ إلى البيتِ أدَّبَه ربُّه، كأنه إذا ظهرَ ربُّ البيت، فالنظرُ إلى البيتِ إساءةُ أدبٍ.

نقل أنّ شيخًا نورانيًّا ذا هيبةٍ جميلةٍ على كتفه طيلسانٌ، دخل من باب بني شيبة، وذهب إلى الكتّاني، وقال بعد السلام: لِمَ لا تمشي يا شيخُ إلى مقامِ إبراهيم، فإنَّ هناك شيخًا يروي الحديث عن النبيِّ ﷺ بروايةٍ عالية، حتى تسمعَ منه الحديثَ، وتنتفعَ به. فرفع الكتاني رحمه الله رأسَه، وقال: عمّن يروي الحديث؟ قال: عبد الله، عن معمر، عن الزُّهري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ. فقال الكتاني: أتيتَ بإسنادٍ طويل، ما يُحدّثونه من الأخبار بالإسناد، ونحن نروي بغيرِ إسنادٍ. قال الرجل: كيفَ ذلك؟ قال الشيخ الكتاني: حدّثني قلبي عن الله تعالى[٣]. فقال ذلك الشيخ: وما علامةُ ذلك؟ قال: علامته أنك الخضرُ عليه السلام. فقال الخضر عليه السلام: ما كنتُ أعلمُ أنْ يكون لله وليٌّ لا أعرفه إلى أن التقيت بأبي بكر رحمه الله، فإنه عرفني، وأنا ما عرفته. فظهرَ من هذا أن لله أولياءً لا يعرفهم غيره.

نقل أنه كان يُصلّي وقتًا، فجاء طرّار[٤]، وأخذ الرداءَ عن كتف الكتاني،

---

(١) في (أ): واقفًا إحدى عينيه.

(٢) في (أ): أنه يَردُ عليه في هذا الحال واردات غيبية، ومكاشفات حقيقية.

(٣) في (أ): حدثني قلبي عن ربّي.

(٤) الطرّار: الذي يقطع الهمايين (جمع هِمْيان: كيس للنفقة، يُشدُّ في الوسط) ويشقُّ كمَّ الرجل ويسلُّ ما فيه. معجم متن اللغة.

وذهب به إلى السوق ليبيعه، فيبستْ يدُهُ في الحال، قال له بعضُ الناس: مصلحتُكَ أن تمشيَ به إليه، وتردَّ عليه رداءَه، وتتضرّعَ لديه؛ لعلّه يدعو لك، ويردُّ الله عليك يدَكَ. فذهب إليه الطرّار، وهو بعدُ في الصلاة، فوضع رداءه على كتفه، وقعد هناك إلى أن فرغ من الصلاة، فتضرّع الطرّار وتذلّل، وأخبره بالحال، فقال الكتاني: بعزّة الله وعظمتِهِ، ما أَحسستُ بأخذك، ولا بردِّك. ثم قال[1] الكتاني: إلهي، كما أنّ هذا الرجل ردَّ علي ما أخذه، أنت بكرمِكَ ردَّ عليه يدَهُ. فطابت يدُه في الساعة.

نقل أنه قال: رأيتُ في المنام شابًّا في غاية الجمال والحسن، فقلت: من أنت؟ قال: أنا التَّقوى. قلتُ: أين تسكن؟ قال: في كلِّ قلبٍ حزين. ثم رأيتُ امرأةً قبيحةً سوداءَ، فقلت: من أنت؟ فقالت: أنا الضحك. فقلت: أين يكونُ مكانك؟ قالت: في كلِّ قلبٍ غافلٍ. فانتبهتُ، وعزمتُ على أن لا أضحك أبدًا إلاّ إذا غُلبَ عليَّ.

وقال الكتاني رحمه الله: رأيتُ النبيَّ ﷺ في ليلةٍ خمسين مرَّةً في المنام، وفي كلِّ مرّةٍ قلتُ: بماذا أدعو يا رسول الله، لئلا يُميتَ اللهُ تعالى قلبي؟ قال ﷺ: قل كلَّ يومٍ أربعينَ مرَّةً: يا حيُّ يا قيُّومُ، لا إله إلا أنت، أسألُكَ أن تُحيي قلبي بنورِ معرفتك أبدًا.

وقال: جاء إليَّ فقيرٌ وهو يبكي، وقال: منذ عشرة أيام ما ذقتُ شيئًا من الطعام، فشكوتُ الجوعَ لبعض الإخوان، ثم دخلتُ السوقَ، فوجدتُ درهمًا مكتوبًا عليه: أما علمَ اللهُ تعالى جوعَك لتحتاج إلى الإظهار والاشتكاء؟!.

نقل أن رجلاً استوصاه، فقال: كنْ لله اليوم، كما تُحبُّ أن يكونَ لك غدًا.

ومن **كلامه** أنه قال: الأنسُ بالمخلوق عقوبةٌ، والقربُ من أهل الدُّنيا معصيةٌ، والميلُ إليهم مذلّة.

وقال: الزاهدُ من لا يجدُ شيئًا، وقلبُهُ مَسرورٌ بذلك، ويكون مُجدًّا مُجتهدًا

---

(١) في (ب): ولا بردّك. فقال الكتاني: إلهي..

في الطلب ـ أي في طلب العبادة ـ وكان راضيًا إلى أن يموت.

وقال: المحبَّةُ الإيثار للمحبوب.

وقال: التصوّفُ الصفوةُ والمشاهدة.

وقال: الصوفي من تكون طاعته[1] في نظره كجنايةٍ، يحتاجُ إلى الاستغفار لها.

وقال: التوبةُ اسمٌ جامع لستَّةِ أشياء: الأول: الندم على ما فات، والثاني: العزمُ على أن لا يعودَ إلى الذنب أبدًا، الثالث: أن يقضيَ ما فاتَ بينه وبين الله تعالى من الفرائض، والرابع: ردُّ المظالم إلى أربابها، والخامسُ: إذابةُ لحمٍ نبتَ من الحرام، والسادس أن يذيقَ الجسدَ مرارة الطاعة كما أذاقَهُ حلاوة المعصية.

وقال: المعرفةُ بالله تعالى أتمُّ وأكملُ من العبادة له تعالى.

وقال: التوكّلُ في الظاهرِ متابعةُ العلم، وفي الحقيقةِ كمالُ النفس.

وقال: العبادةُ على اثنين وسبعين بابًا، واحدٌ وسبعون بابًا منها في الحياء من الله تعالى.

وقال: الطعامُ المُشتهى هو لقمةٌ من ذِكْر الله تعالى، إذا وضعَتْ في فم اليقين، مأخوذةً في حالة التوحيد، من مائدة الرضا، بظنٍّ صحيح بإكرام الله تعالى.

وقال: إن الله تعالى لا يفتحُ لسانَ العبدِ بالاعتذار والاستغفار إلاّ بعد أن يفتحَ له بابًا من المَغفرة.

وقال: إذا صحَّ الافتقارُ[2] إلى الله تعالى صحَّتِ العنايةُ من الله؛ لأنهما حالتان، لا يتمُّ أحدُهما بدون الآخر.

وقال: الحزنُ الحاصل وقتَ الانتباه من الغفلةِ، وانقطاعُ النفْسِ عن

---

(١) في (ب): من كان طاعته.

(٢) في (أ): إذا صح الاعتقاد.

حظوظها، ورجفانُ القلب من خوفِ القطيعة أفضلُ من عبادة الجنِّ والإنس.

وقال: مدارُ الدنيا على البلوى[١]، ومدارُ الجنَّة على التقوى.

وقال: المريدُ الصادقُ من لا ينام إلاّ عند غلبةِ النوم، ولا يأكلُ إلاّ عند شدّةِ الجوع.

وقال: كنْ بجسدِك في الدنيا، وبقلبِك في الآخرة.

وقال: إذا سألتَ الله تعالى التوفيق، فليكنْ ابتداءُ سؤالك بالعمل الصالح.

وقال: وجدنا دينَ الله تعالى مَبنيًّا على ثلاثة أركان: الحقّ، والعدل، والصدق. أمّا الحقُّ فعلى الجوارح، والعدلُ فعلى القلوبِ، والصدق فعلى العقول.

وقال: إنّ لله ريحًا تُسمّى ريحَ السحر، مخزونةً تحت العرش، تهبُّ وقتَ السحر، وترفعُ أنين[٢] المُذنبين واستغفارَهم إلى حضرة القدس.

وقال: الشكرُ في موضع الاستغفار ذنبٌ، كما أنَّ الاستغفارَ في موضع الشكرِ ذنبٌ.

نقل أنه قيل حين حضرتْ وفاةُ الكتاني رحمه الله، سأله بعضُ الأصحابِ عن أعماله في حياته، قال: لو لم أكنْ مُشرفًا على الوفاة لَمَا كنتُ أُخبرُكم، ثم قال: كنتُ أربعين سنة حارسًا للقلب عن غير الله تعالى، فدفعتُ ما وجدتُ فيه باقيًا[٣] غير الله تعالى، حتى ما بقي في قلبي سوى الله تعالى شيءٌ.

رحمه الله رحمةً واسعة، ورزقنا ببركتِهِ رحمتَهَ ومغفرتَه ورضوانه بغيرِ حساب، إنّه الكريم الوهاب، الرحيم التّواب، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *

(١) في (أ): كتب تحت كلمة (البلوى): الاحتياج.

(٢) في (أ): وتحمل أنين.

(٣) في (ب): ما وجدت فيه شيئًا.